النزعة العربيـــة

في شعر حافظ ابراهيم[1]

قدِم حافظ إبراهيم دمشق الشام سنة ١٩٢٩ فاحتفى به المجمع العلمي العربي وعُلِّق على صدره وسام الاستحقاق السوري وهو ينشد هذين البيتين :

شكرتُ جميل صنعكم بدمعي ودمع العين مقياس الشعور
لأول مرّة قد ذاق جفني على ما ذاقه دمع السرور

وقال الشعراء فيه قصائدهم وأذكر أنّ من الشعر الذي قيل فيه :

أرى رجالاً على الأهرام ديدنهم حلّ الأواصر من طيّ وشيبان
تنكبوا عن صميم العُرب واعتصموا بحبل رمسيس أحدانا بأحدان
أعيذها خطرات ملؤها مضض أن تهدم الشرق أركاناً بأركان

مضى على هذا الشعر ثمانية وعشرون عاماً فتبدّلت الأرض غير الأرض والسموات .

من شهرين سألتني السفارة المصرية في دمشق أن أذكر لها عنوان الموضوع الذي وقع عليه اختياري في مهرجان حافظ إبراهيم ، وعرضتْ عليّ الموضوعات التي اختارها أساتذة مصر الفضلاء في هذا المهرجان ، فقلت للذي كان يفاوضني في هذا الأمر : لم يُبقِ لي فضلاء مصر أفقاً أجول فيه ، فهم لم يغادروا من متردّم ، فقال لي : عليك النزعة العربية في شعر حافظ ، فوقع هذا الاقتراح مني موقعاً حسناً وأنا لم أنظر اليه لأنه نجّاني من ضيق ولكني نظرت اليـه

(١) كلمة مثل سورية في مهرجان حافظ ابراهيم في الاسكندرية الأستاذ شفيق جبري عضو المجمع العلمي العربي وقد ألقيت في تموز سنة ١٩٥٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من وجه آخر ، قابلت بين هذا الشعر الذي قيل في حافظ من ثمانية وعشرين عاماً في دمشق وفيه عتاب مصر بسبب زهدها في القومية العربية وبين قول السفارة المصرية : عليك النزعة العربية في شعر حافظ وفيه اهتمام بهذه القومية ، قابلت بين هاتين الفكرتين ، فعجبت من تغير العصور ، عصر تكاد مصر تزهد فيه في النزعة العربية ، وعصر تهبّ فيه مصر لتذكير بلاد العرب بهذه النزعة ، والحضّ على الأخذ بأسبابها ، والاستمساك بالعروة الوثقى من القومية العربية ، والإيمان بقوة هذه القومية وبمحاسن آثارها في نزاع العالم ؛ ولا أدلّ على هذه القوّة من تضافر العرب يوم بور سعيد وما أدّى اليه هذا التضافر من نصر مبين .

فهل ارتجلت فكرة القومية العربية ارتجالاً في مصر وفي شعر حافظ ابراهيم ؟ ليس في الطبيعة انقلابات تفاجئ العالم مفاجأة ، فما حدث على وجه الأرض من الانقلابات في خلال العصور إنما كان نتائج علل بطيئة في سيرها ، متئدة في عملها ، فقد تتحوّل مجاري البحار ، وقد ينحدر الجليد من أعاليه الى السهول دون أن نشعر بهيجان البحار وجماح الجليد ؛ وما يجري في الطبيعة يجري في المجتمع ولكن على تفاوت بين سرعة وسرعة .

لم ترتجل القومية العربية في مصر وفي شعر حافظ ارتجالاً ، واذا رجعنا الى طائفة من أئمة الفكر والشعر وجدنا أنهم بعثوا في أثناء القرن التاسع عشر والقرن العشرين هذه القومية من مدافنها ، وتغنّوا بحضارة العرب ، ودلّوا على روائع آثارها ، وعلّموا الناس أصول الحرية والاستقلال ؛ إذا رجعنا الى هذه الطائفة من الكتّاب والشعراء رأينا أن كتاباتهم وقصائدهم مملوءة بالقومية ، فلم تصل بلاد العرب فجأة الى حريتها واستقلالها في هذه الأيام ، وإنما مُهِّد لهذه الحرية وهذا الاستقلال ردحاً من الدهر حتى اختمرت فكرة القومية في الأذهان ، ونضج الشعور بها في القلوب ، فلمّا أمكنت الفرص اغتنمتها بلاد العرب ولم تضع مناهزها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلنبادر بعد هذه المقدّمة الوجيزة الى التمتع من نزعة حافظ العربية .

لست أحاول أن أضيع في شعر حافظ بين نزعاته العربية المشتتة في تضاعيف هذا الشعر ، وإنما حسبي أن أجتزئ بواحدة من هذه النزعات يكاد يظهر فيها الصفاء في أوضح مظاهره :

واهاً على دولةٍ بالأمس قد ملأت ... جوانب الشرق رغداً من أياديها
كم ظلّلتها وحاطتها بأجنحة ... عن أعين الدهر قد كانت تواريها
من العناية قد ريشت قوادمها ... ومن صميم التقى ريشت خوافيها
والله ما غالها قِدْماً وكاد لها ... واجتثّ دوحتها إلا مواليها
لو أنها في صميم العرب قد بقيت ... لما نعاها على الأيام ناعيها
ياليتهم سمعوا ما قاله عمر ... والروح قد بلغت منه تراقيها
لا تكثروا من مواليكم فان لهم ... مطامعاً بسمات الضعف تخفيها

نلمح من هذه الأبيات القوية إخلاص حافظ للعرب حبّه ، فكأنه يريدها دولة عربية لا أثر لأعجمي فيها لأنه يعلم أن نكبة العرب في كل دهرٍ ، في قديمه وحديثه ، كانت على أيدي الأعاجم ، ففي القديم قتلوا عمر ، وكانوا سبباً في تهديم بني أمية وإضعاف بني العباس ، وفي الحديث وقفوا في سبيل حرية العرب واستقلالهم ، وما زالوا يقفون هذا الموقف نفسه .

لا أحاول أن أضيع بين هذه النزعات الصافية الخالصة ، وإنما أحبس قولي على نزعتين منها وكأنها زينة شعر حافظ العربي ورونق قلبه العربي وأريد بهما تغنيه بوحدة العرب وبلغة العرب ، ففي هاتين النزعتين يظهر حافظ في حقيقته ، لا يؤثر فيهما بعض دمه التركي وإنما نفض عنه كل أثر غير أثر العرب ، وظهر في روحه العربية وقلبه العربي وشعوره العربي .

فطن حافظ إبراهيم الى منزلة الشعر في جمع الأهواء والتأليف بين القلوب فاستخدم شعره في هذه الغاية النبيلة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لقد وقع بعض الجفاء بين المصريين وبين طائفة من الشاميين المقيمين بمصر ، وأشار الى هذا الجفاء أحد الكتّاب الذين عاشوا في مصر في أوائل القرن العشرين ، وأيّد ذلك قول حافظ :

لولا رجال تغالوا في سياستهم منّا ومنهم لما لمنا ولا عتبوا

فعزم جماعة من السوريين على تكريم حافظ في فندق « شبرد » فعمل حافظ قصيدته : سورية ومصر وأنشدها سنة ١٩٠٨ .

لم يقبع حافظ في مصريته الضيقة فقد كان يعلم أن هذه اللغة التي ينطق بها ثمانون مليون عربي جديرة بأن يستخدمها هو وأمثاله من الشعراء في جمع هذه الملايين المتناثرة على بقاع واحدة من الأرض . بدأ بالتأليف بين مصر والشام ، لأنه كان يعلم حق العلم كثرة التشابه بينهما ، فقد كانت أقدارهما على نحو ما ذكره أحد المؤرخين : « واحدة في عهد الدول الاسلامية وحياتها الاجتماعية متجانسة. هكذا كانت مصر والشام في دولة الراشدين والدولة الأموية فالعباسية فالطولونية فالفاطمية فالأيوبية فدولة الأتراك والمماليك فدولة الجراكسة فدولة الترك العثمانية ، وكانت مصر منبعث حضارة في معظم أزمانها كما كانت في العقود الأخيرة من حياتها ملجأً ومعتصماً للأحرار ومباءة ممتازة للعلم الإسلامي تأخذ عنها الأقطار والأمصار » .

عرف حافظ إبراهيم هذا كلّه وعرف أن الشعر انما هو أقدر الصيغ على نزع البغضاء من الصدور وإلقاء المحبة في القلوب فقال قصيدته :

لمصر أم لربوع الشام تنتسب هُنا العُلا وهناك المجد والحسب

وأشار فيها الى اشتراك هذين القطرين العظيمين في تاريخ واحد وآلام واحدة وحب واحد :

إذا ألمّت بوادي النيل نازلة باتت لها راسيات الشام تضطرب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وإن دعا في ثرى الأهرام ذو ألم أجابه في ذرا لبنان منتحب
لو أخلص النيل والأردن ودهما تصافحت منهما الأمواه والعشب

ولم يبالغ حافظ إبراهيم في تصوير هذه الصلة المستحكمة بين مصر والشام من قديم الدهر ؛ واذا أردنا برهاناً على هذه الصلة الروحية وجدناه في اضطراب الشام يوم بور سعيد الأخير .

وكأنّ حافظاً لم تنقع غليله هذه النفحة السماوية التي ألف بها بين مصر والشام فأحبّ أن يطلع على العرب بنفحة أوسع مدىً وأبعد مذهباً أوحتها اليه ديار الشام لما قدمها بعد أحد وعشرين عاماً ، فماذا ذكّرته الشام ، لقد ذكّرته بني أميّة وما اشتملت عليه خلافتهم من المحامد التي لا تبلى سجيس الليالي :

أبت أميّة أن تفنى محامدها على المدى وأبى أبناء غسّان
فمن غطارفة في جلّق نجب ومن غطارفة في أرض حوران
عافوا المذلّة في الدنيا فعندهم عزُّ الحياة وعزُّ الموت سيّان
لا يصبرون على ضيم يحاوله باغٍ من الإنس أو طاغ من الجان

فكما اتسع أفق شوقي في نزعته العربية بعد زيارته الأندلس وملء خاطره من آثار العرب في هذه الجنة الخضراء فكذلك اتسع أفق حافظ في هذه النزعة بعد زيارته الشام ، لقد أوحت الأندلس الى شوقي شعراً تأججت القومية في قلائده فقال في دمشق قصيدته الخالدة :

بنو أميـة للأنباء ما فتحوا وللأحاديث ما سادوا وما دانوا
كانوا ملوكاً سرير الشرق تحتهم فهل سألت سرير الغرب ما كانوا
عالين كالشمس في أطراف دولتها في كل ناحية ملك وسلطان
يا ويح قلبي مهما انتاب أرسمهم سرى به الهمّ أو عادته أشجان
بالأمس قمت على الزهراء أندبهم واليوم دمعي على الفيحاء هتّان
معادن العزّ قد مال الزمان بهم لو هان في تربه الإبريز ما هانوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأوحت الشام الى حافظ شعراً يوحّد به العرب :

عهد الرشيد ببغدادٍ عفا ومضى ... وفي دمشق انطوى عهد ابن مروان
ولا تسل بعده عن عهد قرطبة ... كيف انمحى بين أسياف ونيران
فعلّموا كل حيّ عند مولده ... عليك لله والأوطان ديّان
حتم قضاؤهما حتم جزاؤهما ... فاربأ بنفسك أن تمنى بخسران
النيل وهو الى الأردنّ في شغف ... يُهدي الى بردى أشواق ولهان
وفي العراق به وجد بدجلته ... وبالفرات وتحنان لسيحان

فهكذا نجد حافظاً قد خرج عن قومية ضيقة تضم مصر والشام إلى قومية رحبة تسع بلاد العرب ؛ فليت الله بعثه في هذه الأيام حتى يرى بعينيه أن عهد الرشيد لم يعف ببغداد ، وأن عهد ابن مروان لم ينطو في دمشق ، ليت الله بعثه حتى يرى بعينيه أثر شعره في استيقاظ العرب من رقدتهم وما أدّت اليه يقظتهم من نعمة الحرية والاستقلال .

فكما جمع شعر « هوميروس » في الماضي قلوب اليونانيين فكذلك جمع شعر حافظ في الحديث قلوب العرب ؛ واذا كانت الأسماء والصور والرموز والتقاليد التي وحّد بها شعراء الاغريق قبائلهم هي التي خلقت اتحاد الاغريق فان أشباه هذه الأسماء والصور والرموز والتقاليد في شعر حافظ ابراهيم كان لها أبلغ الأثر في وحدة العرب .

ولكن الأفق الذي لاحت منه نزعة حافظ العربية انما هو أفق اللغة ، فقد استفاضت على ما يظهر دعوة الى استعمال اللغة العامية في مصر بدلاً من الفصحى ؛ صاحب هذه الدعوة رجل من الانكليز جاء مصر وخطب في هذا الموضوع وكتب على نحو ما قرأت في خطبة من الخطب التي قيلت في تأبين حافظ ابراهيم في دمشق ، فكادت الدعوة تعمّ لولا أن وقف في وجهها شيوخ اللغة وحماتها ، وكان حافظ ابراهيم لسان أولئك الشيوخ والحماة ، فقد نشر قصيدته : اللغة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تنعى حظها بين أهلها في سنة ١٩٠٣ ، أي في مطلع القرن العشرين ، وقد كانت القومية اختمرت أقوى اختمار أو كادت على أيدي رجال الفكر والشعراء .

يقول حافظ في هذه القصيدة على لسان اللغة :

أيطربكم من جانب الغرب ناعب ينادي بوأدي في ربيع حياتي

وكأن هذا الناعب الذي ينادي بوأد اللغة وهي في ريعان شبابها انما هو الرجل الانكليزي الذي دعا الى العامية في حينه .

لو رجعنا الى عناصر هذه القصيدة لوجدنا أنها تشير الى سعة لغة العرب التي وسعت كتاب الله ، والى تقاعس العرب عن لغتهم ورميها بضيقها عن استيعاب الحضارة ومذاهبها ، والى الترحيم على الذين حفظوا لغة العرب في الغابر من السنين وغاروا عليها ، والى تقريع أهلها وأبنائها من أجل هجرانها والزهد فيها ؛ وقد تضمنت القصيدة غير ذلك من النزعات التي تدل دلالة قوية على حرص حافظ على القومية العربية :

وسعتُ كتاب الله لفظاً وغاية وما ضقت عن آي به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنسيق أسماء لمخترعات

أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني ومنكم وإن عز الدواء أساتي

فلا تكلوني للزمان فانني أخاف عليكم أن تحين وفاتي

قذف حافظ بهذا الشعر المؤثر وقد نضجت القومية كما قلت واشتد الدفاع عن لغة العرب والتغني بآثار هذه اللغة وخصائصها ، لقد صدرت قصيدة حافظ في مطلع القرن العشرين ولكن أئمة اللغة لم يقصروا في خلال القرن التاسع عشر في النهوض باللغة والمراماة دون حياضها ووضع بعض المصطلحات لما تفاجأ به من مستحدثات الحضارة ، وإذا ذكرت أئمة اللغة الذين دافعوا عنها في مصر والشام والعراق فما ينبغي لي أن أغفل عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أو عن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الشدياق واليازجي وأضرابهم ، وقد بلغ من حب الشدياق للغته أنه كان لا يذكر لغة العرب إلا قرنها بصفة الشرف ، وكان يفضلها على اللغات كلها ، فجاءت قصيدة حافظ في هذا الباب خاتمة لهذه النزعة القوية التي استفاضت في القرن التاسع عشر .

وحرام أن نمرّ بهذه القصيدة دون التنبيه على فضيلة حافظ في إدراكه حقيقة اللغة ومنزلتها من الأمم ، فقد أدرك حافظ ابراهيم ان اللغة انما هي وطننا الروحي ، واذا ذهب الوطن ورسومه بقيت اللغة وآثارها ، لقد انبسط ظل الأعاجم على مصر والشام والعراق أحقاباً طويلة ، ولئن استطاعوا السبيل الى الاضطهاد فهم لم يستطيعوا أن يمنعوا شعر المتنبي والبحتري وأبي تمام عن أن يقوم مقام وطن مضطهد ، أفلم تقم في الماضي لغة «هوميروس» شاعر اليونان مقام وطن اليونانيين الذين أرهقهم الاضطهاد ، اللغة إنما هي مملكة العقل الذي لا يعرف الحدود ولا الموت ، لقد أصبحت قبور الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد وغيرهم من أمراء البيان دوارس ، لا عين ولا أثر ، ولكن بيان هذه الطبقة من رجال العبقرية ظلّ يرتفع الى أعنان السماء حتى عصرنا هذا .

قيمة اللغة ما تعطيه البشريه فهي تموت في اليوم الذي لم يبق لها شيء نافع تعطيه ، فاللغة العربية كانت لغة ملايين من البشر ، نشأت في القفار والصحارى ، ثم أصبحت لغة دين ومثل أعلى وفتوح وبطولات ، ثم أصبحت لغة أدب بلغ في عصور العربية كل مبلغ من النضج ، ثم أصبحت لغة فلسفة وعمران واجتماع .

أدرك حافظ ابراهيم هذا كله ، أدرك أن اللغة ليست مجرّد ألفاظ وأصوات وانما هي عالم معنوي ، فاذا لم يعطها أهلها روحهم فلا تبلغ من القلوب المبالغ ؛ واللغة العربية أعطاها أئمتها في القديم كل ما ملكوه من العبقرية في مذاهب الفكر ، وأعطاها شيوخها وشعراؤها في القرن التاسع عشر والقرن العشرين مثل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذه العبقرية فظلّت خالدة على الدهر بفضل حافظ ابراهيم ونظرائه من أحباب العربية ، وستظلّ ناعمة بهذا الخلود أبد الآبدين .

هذه اللغة هي التي أحبها حافظ وصور هذا الحب في شعره أبلغ تصوير ، فنفخ فيها روحه وقلبه وأفرغ فيها عبقريته وتغنى بعظمتها وذاق محاسنها وبلا حلاوتها فنعى على أهلها تنكرهم لها ونقم عليهم تقصيرهم في رفع شأنها .

فاذا بحثنا عن النزعة العربية في شعر حافظ ابراهيم فلا نكاد نجد في شعره أبلغ من هذه النزعة وأنطق منها .

فلتمجّد الذين يواظبون على جعل العربية لغة شعر وعلم وفلسفة وتاريخ ونقد وصحافة وخطابة ، ولتمجّد الذين يحرصون على صفائها ويحولون دون شيخوختها وهرمها وحافظ إبراهيم على رأس هذه الطبقة .

سلام على مصر ! سلام على شاعرها الخالد !

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net